- ١٢ -

عمرة القضاء

عاد النبى ﷺ إلى المدينة بعد أن هزم يهود خيبر، حيث مكث فى هذه الغزوة قرابة الشهرين، وشعر المسلمون فى المدينة بأنهم وقد فتح الله عليهم بالأمان والأمن.. فقد أمنوا اليهود فى الشمال، وأمنوا غدر مكة فى الجنوب، ولم يعد أمامهم إلا التطلع إلى عمرة القضاء.. أى الذهاب إلى مكة لأداء العمرة التى منعتهم عنها قريش فى العام الماضى، ومن حقهم بمقتضى صلح الحديبية العودة بعد شهور لأداء هذه العمرة.. ومرت ثمانية أشهر، وحان الوقت للذهاب إلى مكة.

وفى أول ذى القعدة.. وكان ذلك فى العام السابع للهجرة.. خرج النبى وأصحابه، وقد بلغوا حوالى الألفين متوجهين إلى أم القرى.. وقد كان المشهد رائعا وجليلا، والمسلمون يتقدمهم النبى الكريم، ومن حوله كبار الصحابة.. نحو مكة، ليس معهم من السلاح سوى السيوف - حسب اتفاقية الحديبية - وإن كان الرسول قد أمر أن يسبقهم فى الطريق إلى مكة مائة فارس بقيادة محمد بن مسلمة، وكانت مهمة هذا الجيش أن يكون تحت أمر النبى لو غدرت مكة، وكان النبى قد أصدر لهم الأمر ألا يدخلوا بسلاحهم مكة، بل يظلوا على مقربة من البلد الحرام، للدخول فى أى معركة يثيرها كفار مكة، فإذا لم يحدث ما يعكر الصفو.. حل محلهم من إخوانهم المسلمين من أدى العمرة، وذهبوا هم الآخرين يؤدون العمرة.

وساق المسلمون أمامهم الهدى ستين ناقة.. وسار النبى على ناقته القصواء.. تلك الناقة التى ركبها النبى منذ سبع سنوات مهاجرا من بلده..

ومهبط رأسه.. ومن أحب البلاد إلى نفسه، حيث شهدت طفولته وصباه وشبابه.. خرج عليها مهاجرا بدينه، وها هو يعود إلى مهبط الذكريات.. وحوله ألفان من الذين آمنوا به يؤدون العمرة.. وأصواتهم ترتفع إلى عنان السماء:

- لبيك اللهم لبيك.

وعلمت مكة بقدوم النبى فهالها الأمر.

البعض ملأ قلبه الحقد والحسد على رسول الله الذى جاء يطوف الكعبة.. وحوله المسلمون.. تملأ السعادة قلوبهم.. فقرروا الرحيل إلى قمم التلال المحيطة بمكة!

والبعض الآخر أخذ يشيع أن النبى ومن معه من المسلمين قد أنهكت قواهم الحروب التى خاضوها ضد اليهود، وأثر عليهم مناخ المدينة، فتأثرت بذلك صحتهم..!!

ولكنهم مع ذلك كانوا يترقبون هذا المشهد الجليل.. ويريدون أن يروا محمدا وأصحابه.. على أية صورة هم..؟

وكان جبل قبيس يمتلىء بالخيام حيث ذهب إليه أهل مكة ليخلوها للنبى وأصحابه لأداء العمرة.. ومن أبواب هذه الخيام كانوا ينظرون إلى النبى وهو يتقدم المسلمين وحوله كبار الصحابة فى مشهد بالغ الجلال والعظمة.. فإذا بهم يرون المسلمين قد بدا على وجوههم سمات القوة والمهابة.. وصوتهم يرتفع إلى عنان السماء:

- لبيك اللهم لبيك..

فيهز القلوب من الأعماق.. وإذا بأهل مكة يشاهدون هذا المشهد الفريد.. ويرون أن محمدا وصل إلى مكانة لم يصل إليها أحد.. وأنه مطاع بين أتباعه بصورة لم يعرفوها حتى لملك من الملوك.. ورأوا النبى وقد أخرج

عضده اليمنى من ردائه، حتى يظهر بمظهر القوة.. وكذلك فعل أصحابه عندما سمعوا النبى يقول لهم:

- «رحم الله امرءا أراهم اليوم قوة من نفسه»..

ها هم المسلمون فى ذورة القوة.. لا يخافون شيئا، ولا يهابون قريشا، وليس فيهم ضعف أو مرض كما أشاع البعض!

ويقترب الموكب العظيم نحو بيت الله الحرام.. والعيون تتطلع إليه من فوق قمم التلال.. يقول النبى لشاعر الأنصار عبد الله بن رواحة قل:

- «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده»..

فإذا بابن رواحه يردد هذا النداء الخالد، ومن خلفه أصوات مئات المسلمين يرددون خلفه هذا النداء العظيم..

وكأن النبى والمسلمون بالبيت الحرام، وسعى بين الصفا والمروة، سبعة أشواط، ثم نحر هديه عند المروة.. وكذلك فعل المسلمون.

وغاظ المشركون صوت بلال عندما صعد فوق الكعبة، وأذن أذان الظهر، وأصداء صوته يتجاوب عبر آفاق مكة!

ولكنهم تيقنوا بما لا يدع مجالاً لأى شك أن محمدا أصبح قوة لا يستهان بها، وأنه من الصعب.. بل من المحال أن تهزم دعوته أو أن تعود الحياة إلى ما كانت عليه قبل أن ينادى النبى بالإسلام.. فقد تغيرت معالم الحياة تماما فى هذه البقعة من الأرض.. ونور الله ينتشر.. والشرك قد ضرب فى الصميم.. فقد رأوا المسلمين وهم يطوفون بالبيت العتيق لا يأبهون بالأصنام التى فى البيت.. وهم الذين كانوا قبل ذلك يقدمون لها القرابين، ويتخذونها آلهة من دون الله.. نفس هؤلاء الأشخاص الذين هاجروا بدينهم إلى يثرب.. يعودون اليوم يعظمون بيت الله الحرام ويمرون بهذه الأصنام البكماء

الصماء.. وهم يزدرونها ولا يقيمون لها وزنا، بل ترتفع أصواتهم ملبية لخالق الكون والحياة وما وراء الحياة!

الصورة جد مختلفة قبل دعوة النبى وبعدها.!..ولا عودة مطلقا للوراء.. فقد اهتزت الصورة نهائيا.. وتغير الحال غير الحال وأصبح من المستحيل أن تعود لهذه الأحجار مكانة فى قلب أحد.. فالعقول أخذت تفكر فى هذه الأصنام التى لم تنصرهم على محمد وأتباعه.. ولم تنتقم هى لهوانها على المسلمين..!.. وفطن العقلاء منهم أن أشياء كثيرة من صورة الحياة سوف تتغير ولا سبيل إلى وقف زحف نور الإسلام.. كما سوف نرى عندما قرر خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة أن يدخلوا فى دين الله..

ومرت الأيام الثلاثة، وآن للركب العظيم أن يعود من أم القرى، وفى أثناء هذه الأيام خطب النبى (ميمونة بنت الحارث) شقيقة أم الفضل زوجة عمه العباس.

ولقد أراد النبى ﷺ أن يمد مكوثه فى مكة حتى يعرس (بميمونة) بها..أراد ﷺ أن يدعو أهل مكة إلى وليمة بهذه المناسبة، حتى يزيل ما فى قلوبهم من أحقاد وحسد على الإسلام ونبى الإسلام، ولكن قريشا رفضت ذلك وطالبته أن يرحل عن مكة بعد الأيام الثلاثة حسب صلح الحديبية.. ووافق النبى ﷺ.. وقد أعرس النبى بها فى مكان اسمه (شيرن) ..وكانت ميمونة فى السادسة والعشرين من عمرها، وخالة خالد بن الوليد، وكانت أرملة، وكانت هى آخر أزواج النبى ﷺ..

وعاد النبى وصحبه الكرام إلى المدينة التى عاشت فى ظل الرسالة أعز أيامها.. والأثر الذى تركته العمرة على المسلمين وعلى أهل مكة على حد سواء كان أثراً كبيراً..

فالمسلمون شعروا بالعزة والكرامة.. وأن مكة إن عاجلا أو آجلا سوف تنضوى تحت راية الإسلام..

والمشركون أخذ عقلاؤهم يفكرون فى الأمر تفكيرا عميقا فهداهم التفكير إلى الإيمان.

فها هو خالد بن الوليد.. فارس مكة الشجاع، الذى كان من أبرز قادتهم فى محاربة الإسلام يفكر مليا فيما آلت إليه الأمور.. فالإسلام ينتشر، ولم تستطع قوى مكة والقبائل الأخرى أن تحول بين الإسلام والانتشار..انتصر المسلمون فى بدر.. وقلبوا موازين القوى فى شبه الجزيرة العربية رغم قلتهم، ورغم هزيمة أحد.. فإن نصر مكة لم يكن كاملا فقد انسحبت جيوش مكة دون أن تجهز على قوات المسلمين، وحصار الأحزاب للمسلمين انتهى نهاية فى صالح المسلمين، وانتصر المسلمون على اليهود وهاهم المسلمون وقد دخلوا بيت الله الحرام، وعادوا إلى البلد الذى أخرجوا منه على صورة أخرى.. خرجوا تحت جنح الظلام وعادوا إليها بعد صلح الحديبية وقد اعترفت مكة بهم.. وجاءوا إليها وسيوفهم معهم .. عاقدين على مجابهة قريش بقوة السلاح لو خانت العهود والمواثيق.. فماذا بقى للإسلام حتى يعم نوره كل مكان..

.. أسئلة كثيرة دارت فى ذهن خالد بن الوليد، وهو يترك لخياله استحضار ما مر من أحداث.. ولقد خرج خالد بن الوليد من مكة حتى لا يرى المسلمين يطوفون بالبيت، ويعودون إلى بلدهم التى طردوا منها .. عالية رؤوسهم.. غير هيابين ولا وجلين من أحد..

ولكنه عاد بعد أن رجع المسلمون إلى يثرب، ووجد من أخيه الوليد الذى جاء للعمرة مع النبى ﷺ رسالة يقول له فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد.. فأنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وأنت فتى عاقل وهل يجهل الإسلام أحد مثلك وقد سألنى رسول الله ﷺ عنك فقال أين خالد ؟

فقلت: يأتى به الله مسلما.

فقال: ما مثل خالد يجهل الإسلام، ولو كان يجهل نكايته على المشركين لكان خيرا له ولقدمناه على غيره.

فاستدرك يا أخى ما فاتك، فقد فاتتك مواقف كريمة مع المسلمين..

وكان هذا الخطاب الذى يفيض حبا وإخلاصا من أخ لأخيه خاتمة المطاف أمام فكر خالد.. فقد أيقن أنه آن الآوان أن يحكم عقله .. وأن يدخل فيما دخل فيه عقلاء الناس.. أن يرمى وراء ظهره أهواء الجاهلية وأباطيلها، وقرر أن يذهب إلى الرسول الكريم ويعلن إسلامه..

وقد زاد يقينه عندما رأى فى منامه حلما أنه خرج من مكان قفر إلى مكان وارف الخضرة.. وقرر الرحيل إلى الرسول وأصداء كلمات أخيه عن قولة النبى عنه تملأ تفكيره كله:

-« ما مثل خالد يجهل الإسلام ».

وقد أراد خالد أن يصحب معه إلى يثرب بعض من كان يراهم ذوى عقل راجح، فعرض الأمر على صفوان بن أمية فرفض، ثم عرض الأمر على عكرمة بن أبى جهل فرفض، فعرض الأمر على عثمان بن طلحة فوافق رغم أن عثمان قد قتل أبوه، وعمه وأربعة أخوة له فى معركة أحد..

وعلم أبو سفيان بإسلام خالد، وأحس أن إسلام رجل فى مكانة خالد ابن الوليد سيكون له دوى كبير فى مكة، فأرسل فى طلبه يستفسر عما تناهى إليه من أنباء.. وانعقدت الدهشة على وجهه، وهو يسمع من خالد أنه سيعلن إسلامه أمام النبى فى المدينة، واغتاظ أبو سفيان قائلا له:

- واللات والعزى لو أعلم أن الذى تقول حق لبدأت بك قبل محمد!

ورد عليه خالد:

- فوالله انه لحق على رغم من رغم.

وفى الطريق تقابل خالد بن الوليد مع عمرو بن العاص الذى كان هو الآخر متوجها ليعلن إسلامه.. وتوجهوا ثلاثتهم إلى المدينة.. وكان ذلك فى أول صفر من العام الثامن من الهجرة.. وأمام سيد البشر أعلنوا إسلامهم.. وقال خالد بن الوليد لرسول الله ﷺ:

- استغفر لى كل ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله.

فقال الرسول الكريم:

- «إن الإسلام يُجِبُّ ما قبله».

قال خالد: يارسول الله على ذلك..

فقال: أشرف الأنبياء والمرسلين.:

- «اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك»..

ثم بايع كل من عمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وكان عمرو بن العاص قد فكر هو الآخر فى الأمر مليا، وآثر أنه يرحل إلى الحبشة، وهناك قابل نجاشى الحبشة وكان يحاول أن يغرى به (عمرو ابن أمية) رسول النبى إلى النجاشى ولكن النجاشى لم يعجبه كلام عمرو، وقال له انه رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى عليه السلام.. ونصحه أن يذهب ويعلن إسلامه.. وقلب عمرو الأمر على جميع وجوهه، وقرر العودة من الحبشة، ويذهب إلى النبى ويعلن إسلامه.. وفى الطريق تقابل مع خالد وعثمان بن طلحة حيث تقدموا للرسول وبايعوه..

وقد قال عمرو للرسول وهو يتقدم لمبايعته:

- يارسول الله أنى أبايعك على أن يغفر الله لى ما تقدم من ذنبى.

فقال له الرسول:

- يا عمرو بايع فإن الإسلام يُجِبُّ ما كان قبله.

وهكذا دخل الإسلام اثنان من أعظم القادة الذى عرفهما تاريخ الإسلام فى فتوحاته الكبرى. .خالد بن الوليد قاهر المرتدين والروم وعمرو بن العاص فاتح مصر. . وكلاهما كانت لهما أدوار بالغة الخطورة فى مسيرة التاريخ الإسلامى. .

وقد عبر النبى تعبيرا بليغا وهو يرى هؤلاء الثلاثة وقد قدموا لإعلان إسلامهم فقال لأصحابه:

- «رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها». .

* * *

obeikandl.com

- ١٣ -

النبى والنساء

لنقف قليلا عند حياة النبى نفسها.. لنرى أننا أمام شخصية لم ولن يعرف التاريخ لها مثيلا.. تلك الشخصية الفذة التى كانت قدوة للمؤمنين، ونور وهداية للناس فى كل العصور.. فالأمى علم أجيالا وصنع تاريخاً، وكان أستاذا لكل أفذاذ العلماء..

واليتيم علم الناس معنى الرحمة والتعاطف الإنسانى.. والذى عاش فى ظل مجتمع قبلى له تقاليده وعاداته.. وضع أسس سليمة لبناء المجتمعات الواعية.. وأسس الحكم السليمة لأى زمان وأى مكان..

وعندما نقترب من حياة هذا النبى العظيم فى جهاده ونضاله فى صبره على قومه وتحمله ما يفوق طاقة البشر.. فى محاولة هدايته لقلوب أقسى وأصلب من الحجارة.. بجانب كل ذلك فى عبادته وخوفه من الله وهو الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. نرى صورا بالغة الروعة والإشراق..

وتبلغ الصورة أروع ما يمكن أن يتصوره الإنسان، وهو يقف عند حياة النبى نفسه.. بين أسرته.. وبين أولاده وأحفاده وزوجاته.. صورة تهز الوجدان.. رغم أن بعض الحاقدين من المستشرقين، حاولوا أن يخلقوا من خيالاتهم المريضة نسيجا لقصص خيالية أبعد ما تكون عن الموضوعية..

محمد العظيم هذا.. عندما ندرس حياته وسلوكه مع نفسه.. ومع أسرته ومع الآخرين.. تزداد عظمته فى النفوس، ونعرف وزنه الحقيقى.. حتى بالمقياس البشرى.. كأعظم من عرفه الوجود..

وقد فشلت كل محاولات الحاقدين فى تشويه معالم الصورة فى عيون المؤمنين برسالته.. فما أكثر الافتراءات التى افتراها هؤلاء المستشرقون.. ومن قبلهم المنافقون الذين زعموا زوراً وبهتانا الإيمان.. وكانوا أبعد ما يكونوا عن دين الله..

صوروه.. إنسانا مفتونا بالنساء.. مغرما بهن.. يعيش قصص حب كتلك التى يكتبها كتاب القصص والروايات الخيالية!

وقالوا فيما قالوا.. إن الإسلام لم ينصف المرأة؟!

ونسوا أنهم يغالطون أنفسهم بأنفسهم.. وأن الإسلام رفع مكانة المرأة التى هى نصف المجتمع - إلى مكانة لم تحظ بها فى أى عصر من العصور.. بل أعطاها حقوقا لم تحصل عليها حتى الآن فى أرقى المجتمعات الإنسانية..

فالمرأة فى الجاهلية كانت مجرد متاع للرجل.. ولم يكن لها ذكر ولا مكانة.. وكان أسوأ خبر يمكن أن يقع على قلب رجل جاهلى عندما يسمع أنه ولدت له أنثى.. يومها يرى كل شىء من حوله قاتما.. حالك السواد وقد يبلغ به الأمر إلى قتل هذا الوليد بلا ذنب جناه..

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

[النحل: ٥٨، ٥٩].

.. وجاء الإسلام ليغير معالم الصورة كلها.. فالمرأة مثل الرجل تماماً.. لها نفس الحقوق، وعليها نفس الواجبات.. والاختلاف فقط أن الإسلام أعطى الرجل بعض المميزات التى عندما ندرسها بموضوعية نراها منتهى العدل.. فإذا كان للرجل مثل حظ الأنثيين فى التركة مثلا فإن الرجل هو الملزم دون المرأة بالإنفاق على البيت، حتى لو كانت المرأة تملك ثراءً عريضاً.. فالإنفاق للرجل، وأعفيت المرأة من هذه المهمة..

.. والمرأة ترث ولها حرية التصرف فى أموالها حتى بعد الزواج وأصبح للمرأة حرية العقيدة.. وكان النبى عليه الصلاة والسلام يبايع من تدخل منهن الإسلام.. أى انها ليست تابعة للرجل فى هذا الأمر الحيوى من حياة أى إنسان له حرية التفكير والاختيار.

والإسلام يبين أن الذكر والأنثى من نفس واحدة:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١].

وأصبح من حق المرأة فى ظل الإسلام أن يكون لها حق المبايعة على تنفيذ ما جاء به الشرع..

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة: ١٢].

.. وحقوق المرأة التى حصلت عليها فى ظل الإسلام.. تسمو بمكانة المرأة، وترفعها إلى مكانة ما كانت تحلم بها، لأن هذه الحقوق وضعها الخالق الأعظم سبحانه وتعالى.

فالمرأة حرة فى تصرفها فى حدود ما رسمه لها الإسلام فقد رفع عنها ما كانت تنوء به فى الجاهلية.. وألغى نظام الاستبضاع.. وكانت هذه العادة موجودة فى الجاهلية.. وهو أن يرسل الرجل زوجته أو ابنته إلى رجل مشهور بالشجاعة أو الحيلة أو الذكاء، حتى تنجب منه ذرية شبيهة له!!!

وكانت هناك عادة أغرب أيضا من الجاهلية نهى عنها الإسلام فعندما كان يموت الزوج يتزوج الابن الأكبر زوجة أبيه، أو يزوجها بمهر جديد لأحد أخوته وهو ما يسمى بزواج المقت!

.. كل هذه الصور الكريهة أبطلها الإسلام.. وأصبحت المرأة المسلمة لها احترامها فهى أم أو زوجة أو أخت لها مكانتها فى المجتمع الإسلامى.

ولنعد لنرى صورا من حياة الرسول مع نسائه.. فالمستشرقون صوروا النبى عليه الصلاة والسلام بأنه مزواج.. لأنه تزوج تسعة نساء.. بينما حرم على غيره أن يتزوج أكثر من أربع!

وهذا كلام سخيف وفيه مغالطات.. فقد نزل قوله تعالى:

﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا ﴾ [النساء: ٣].

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء: ١٢٩].

.. هذه الآيات نزلت فى السنة الثامنة للهجرة، وكان النبى قد تزوج كل زوجاته.. أى أن القرآن الكريم شرع الزواج بأربع بعد أن كان إلى وقت نزول هذه الآيات مطلقا.. وهذا يعنى أن النبى ﷺ لم يبح لنفسه ما حرمه على باقى المسلمين.

بل أن هذه الآيات توضح كيف أن الإسلام، مع إباحته للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة، حتى أربع، فضل الزواج من زوجة واحدة.. لأنه اشترط فى الزواج من أكثر من واحدة العدل بين الزوجات، وبين أن هذا الأمر ليس سهلا.. ومن هنا فضل الزواج بواحدة..

ولكن لأن الإسلام لم يأت لعصر دون عصر.. بل لكل العصور.. فقد أباح التعدد لأسباب اجتماعية.. فهناك عصور تنتشر فيها الحروب.. والذين يشاركون فى هذه الحروب هم الشباب، وكثيرا ما تحصدهم هذه الحروب حصدا، ويصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال.. ومن هنا لابد من التوازن فى المجتمع حتى لا تتحول النساء إلى عوانس.. وهنا تظهر عظمة التشريع

الإسلامى فى إباحة التعدد.. وقد حدث أن أباحت ألمانيا وبعض الدول الأوربية بعد الحربين العالميتين أن يتزوج الرجل بأكثر من واحدة ! رغم معارضة ذلك لمعتقداتهم .. فقد فرضت الظروف الملحة عليهم ذلك.. وهذا يعنى أن الإسلام أكثر فهما لحاجات البشر، لأنه جاء من عند خالق البشر..

بجانب أن هناك ظروفا أخرى توجب الزواج بأكثر من واحدة.. كمرض الزوجة مرضا يقعدها عن إجابة مطالب زوجها.. فأيهما أفضل أن يتزوج بأخرى، ويرعى زوجته الأولى وأولاده منها.. أم أن يتحول إلى طريق الشيطان.

ومع ذلك فالنبى ﷺ، لم يكن رجل شهوة، ولا مغرم صبابة بالنساء.. ولا كان عنده من الوقت الذى كان يقضيه إما مجاهدا أو عابدا، أو شارحا للناس أمور دينهم.. ليس عنده من الوقت ليكون.. (زير النساء) كما تصوره حكايات المستشرقين وآراؤهم الفجة.

ولقد لخص مولاى محمد على فى كتابه (محمد رسول الله) حياة النبى بإيجاز، وهو رد عميق على هؤلاء الأدعياء عندما قال:

- يمكن تقسيم حياة النبى الأسرية إلى أربعة أقسام:

- كان أعزب حتى الخامسة والعشرين، وعاش مع زوجة واحدة من الخامسة والعشرين حتى الرابعة والخمسين، وتزوج عدة زوجات بين الرابعة والخمسين والستين، ولم يتزوج من الستين إلى أن لحق بالرفيق الأعلى..

فالنبى ﷺ.. عاش شبابه لم يقل عنه أحد من ألد أعدائه شيئا يمس الشرف والفضيلة حتى تزوج خديجة وكان عمره خمسة وعشرين عاما.. فى هذه السن التى كان فيها محمد بن عبد الله فى عنفوان الشباب ورونق الرجولة.. وله ما له من جمال التكوين، وفصاحة اللسان، وعراقة النسب.. ما يغريه أن يتزوج بأكثر من واحدة.. وكان المجتمع المكى لا يرى فى هذا ما يضير أى رجل.. لم يتزوج سوى خديجة بنت خويلد.. وهى تكبره بخمسة

عشر عاما.. عاش معها أجمل أيام عمره.. وظل طوال حياته يشيد بهذه الزوجة العظيمة التى وقفت معه بمالها.. وتشجعه بحنانها، وهو يؤدى الرسالة.. وقبل ذلك وهو يطيل التأمل والفكر فى ملكوت الله.. يستشف ما وراء الكون من أنوار.. حتى جاءه وحى السماء.. وظل معها إلى أن وصل الرابعة والخمسين من العمر.. فقد جاوز مرحلة الشباب..

ولم يكن عنده من الوقت أى متسع إلا للرسالة.. لقد كان عاشقا لله.. عابدا لله.. متهجدا.. تتورم قدماه وهو قائم للصلاة.. ويصف القرآن ذلك بقوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: ١ - ٤].

فزواج النبى بعد الرابعة والخمسين؟ هل يمكن أن يكون زواج شهوة.. لقد تزوج زوجاته بين الرابعة والخمسين والستين.. وهو السن الذى يكون الإنسان فيه قد تخطى مرحلة الشباب، ودخل فى الشيخوخة.. فما بالك برجل كمحمد بكل انشغاله بتبليغ الرسالة..

وفى هذه المرحلة بالذات.. مرحلة تخطيه الرابعة والخمسين.. كان قد هاجر إلى المدينة.. وكان يقيم فيها الدولة الإسلامية.. وكان الصراع على أشده بين النبى وأعداء الدعوة من مكة.. إلى مختلف القبائل العربية الأخرى.. بجانب عداوة اليهود.. هذه الأعباء الثقيلة التى تقع كلها على كاهل النبى ﷺ.. هل يمكن بعدها أن نقول أنه كان مشغولا بالنساء..

ولكن ما هو سبب تعدد زوجات الرسول؟

إن الإجابة على هذا السؤال سهلة ويسيرة.. فهو يريد أن يربط ويقوى روابط الصداقة بينه وبين المسلمين.. فتزوج عائشة بنت أبى بكر وأبو بكر كان أقرب الناس إلى رسول الله.. وأول من آمن به من الرجال.. وصديقه فى الغار.. وهو الذى تحمل ما تحمل فى سبيل الدعوة..

وتزوج حفصة بنت الفاروق عمر بن الخطاب.. والفاروق عمر لا أحد ينكر كيف أعز الله به الإسلام.. وقد جاهر بإسلامه.. وخرج يعلن الإسلام على ملأ مكة كلها غير مبال بشئ.. وكان أيضا من أقرب الناس إلى رسول الله..

ومما يدل على أن زواج النبى من عائشة وحفصة يرجع إلى هذا السبب ما يرويه الرواة عن قول عمر:

- «والله إنا كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم.. قال: فبينما أنا فى أمر ائتمره إذ قالت لى امرأتى: لو صنعت كذا وكذا!

فقلت لها: ومالك أنت ولما ها هنا وما تكلفك فى أمر أريده!

فقالت لى: عجبا لك يا ابن الخطاب. ما تريد أن تراجع أنت وأن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان!

قال عمر: فآخذ ردائى ثم أخرج مكانى حتى أدخل على حفصة.. فقلت لها: يا بنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟

فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه.

فقلت: «تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله.. يا بنية لا يغرنك هذه التى قد أعجبها حسنها وحب رسول الله إياها.. والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلقك»..

..وفى هذه الكلمة الأخيرة يوضح عمر لابنته أن النبى ما تزوجها إلا إكراما له.. لا حبا فيها.. ولا ولعا بها.

وقد تزوج النبى أيضاً أم حبيبة بنت أبى سفيان.. وأبو سفيان كان زعيم قومه.. وظل مشركا حتى فتح مكة.. وكانت أم حبيبة قد هاجرت مع

زوجها إلى الحبشة.. وبعد أن استقرت معه فى أرض الهجرة عشر سنوات فإذا بزوجها يرتد عن دينه بعد أن أنجب منها طفلة (حبيبة).. ومن هنا أطلق عليها أم حبيبة لأن اسمها رملة.. وكانت فجيعتها فى زوجها وابن عمها فى نفس الوقت (عبيد الله بن جحش) فجيعة أليمة.. وسمع النبى قصة هذه المجاهدة العظيمة، فأرسل إلى النجاشى رسولا وهو عمرو بن أمية العمرى ليخطبها للنبى.. وكان ذلك فى السنة السابعة للهجرة.. وهكذا أزال النبى عنها جراحها.. وأصبحت أما من أمهات المسلمين..

..وكانت رملة بنت أبى سفيان قوية الإيمان مقدرة للرسول الكريم موقفه الكريم منها.. ويتضح عمق إيمانها عندما يتوجه أبو سفيان بعد صلح الحديبية.. وبعد أن نقضت قريش هذا الصلح، فخشى زعماء مكة عاقبة هذا.. فقوة المسلمين بلغت الأوج.. وأبو سفيان يعلم أنه لا قبل لقريش على مهاجمة الرسول.. فذهب ليعتذر.. ولكنه خشى لقاء النبى ﷺ فتوجه إلى بيت ابنته (أم حبيبة) أولا.. وعندما أراد الجلوس سحبت فراش النبى من تحته.. على اعتبار أنه رجل مشرك لا يحق له أن يجلس على فراش الرسول ﷺ، وقد تعجب أبو سفيان من ذلك وقال لها:

- ما أدرى أرغبت بى عن الفراش أم رغبت به عنى؟

قالت له:

- بلى هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك ولا أحب أن تجلس على فراش النبى.

قال لها أبو سفيان:

- لقد اصابك يا بنيه بعدى شر!

ومهما يكن من شئ فإن أبا سفيان لم ينس موقف النبى الكريم من ابنته.

وقد تزوج النبى فى العام السابع للهجرة، بعد أن أصبح وحيدا.. بعد

وفاة زوجته العظيمة خديجة بنت خويلد.. تزوج النبى سودة بنت زمعة.. وكانت هذه السيدة زوجة لأحد الذين هاجروا إلى الحبشة وهو (السكران بن عمر).. وقد مات الرجل، وكانت هى سيدة مسنة.. رعت أولاد النبى إلى أن هاجر إلى المدينة وهاجرت معه، ثم تزوج النبى عائشة بنت أبى بكر الصديق فى السنة الأولى للهجرة، وتزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب فى العام الثالث للهجرة.. وكانت حفصة أرملة فى الثامنة عشرة من عمرها، وكان زوجها خنيس بن جذامة السهمى أحد شهداء بدر.. وكانت تجيد القراءة والكتابة.

وتزوج النبى زينب بنت خزيمة.. وكان يطلق عليها أم المساكين.. وكانت زوجة لابن عم الرسول عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وقد استشهد فى معركة بدر ..وقد لقبت بأم المساكين لحبها الشديد للفقراء والمساكين .. فقد كانت دائبة العطف عليهم وقد تزوجها النبى فى السنة الرابعة للهجرة، غير انها انتقلت إلى جوار الله بعد ثمانية أشهر من زواجها بالرسول الكريم.. وقد تزوج النبى بالسيدة هند أم سلمة المخزومية.. وقد استشهد زوجها على أثر الجراح التى أصابته فى معركة بدر.. فمات بعد هذه المعركة بعدة شهور.. وكان زوجها هو عبد الله بن عبد الأسد (المخزومى) فقد هاجر معها إلى الحبشة عندما كان المسلمين الأوائل يهاجرون إليها فرارا من الاضطهاد حيث رزقا بولدهما (سلمة) .. ومن هنا اشتهرت بأم سلمه.. وقد تزوجها النبى لأنها كانت تعول ثلاثة أبناء..

وكان الزواج فى العام الرابع للهجرة أيضا.. وقد عمرت طويلا وماتت فى خلافة يزيد بن معاوية..

وقد تزوج النبى من زينب بنت جحش، وكانت زينب، ابنة عمة النبى، لان أمها أميمة بنت عبد المطلب عمه النبى ﷺ، ..وكانت قد تزوجت زيد بن حارثة.. وكان زيد هذا مولى للسيدة خديجة بنت خويلد زوجة

رسول الله وكانت قد وهبته للنبى قبل البعثة فأعتقه وتبناه. . وقد زوجها النبى لزينب، وكانت زينب ترى فارقا بينها وبينه، فهى تنتمى إلى أعرق بيوتات مكة، وزيد كان رقيقا، رغم أن النبى قد اعتقه وتبناه. . ولكن (زينب) كانت تجد دائما هناك فارقا بينه وبينها، وكرهت عشرته، وطالما اشتكى زيد ذلك إلى رسول الله، وكان الرسول يقول له:

-« امسك عليك زوجك ». .

ولكن زيدا لم يستطع أن يعيش معها فطلقها، وقد أمر الله النبى بالزواج منها، ولكن النبى كان يخشى أن يتقول عليه العرب واليهود، ويقولون أنه تزوج من زوجة ابنه بالتبنى فنزل قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وتزوجها النبى امتثالا لأمر الله بعد انقضاء العدة، كان العرب يعتبرون الابن بالتبنى كالابن تماما.

﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقد حرم الإسلام التبنى بعد ذلك فنزل قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقد سمى زيد باسم أبيه (زيد بن حارثة) بعد أن كان يطلق عليه زيد ابن محمد. .

ولكن العجيب أن المستشرقين أخذوا هذه القصة، وتركوا لخيالهم أن يرسم لهم ما شاءوا من الأهواء، فقالوا فيما قالوا أن محمدا رأى زينب بنت جحش، عندما ذهب ذات يوم لزيارة زيد، فلما رآها بهر بجمالها الفاتن،

فقرر الزواج منها، بعد أن أمر زيدا بأن يطلقها. . والقصة بهذا السياق الذى ساقه هؤلاء المستشرقين مضحكة، فزينب هى ابنة عمة الرسول، أى أن النبى يعرفها حق المعرفة، ويعرف مقدار جمالها قبل أن تتزوج من زيد، بل هو الذى زوجها له.

وتزوج النبى بمارية القبطية وأنجبت منه ابنه إبراهيم، وكانت عائشة تقول عنها: « ما غرت من امرأة إلا أقل مما غرت من مارية، وذلك أنها كانت جميلة جعدة فأعجب بها رسول الله ﷺ وكان أنزلها أول ما قدم بها فى بيت لحارثة بن النعمان، فكانت جارتنا، فكان عامة النهار عندها، . . فجزعت فحولها إلى (العالية) بأقصى المدينة وكان يذهب إليها هناك فكان ذلك أشد علينا ». .

وتزوج النبى من صفية بنت حيى بن أخطب وجويرية بنت الحارث من سبايا اليهود. .

* * *

فزوجات النبى حسب ترتيب زواجهن بعد خديجة هن:

- سودة بنت زمعة.
- عائشة بنت أبى بكر. .
- حفصة بنت عمر. .
- هند أم سلمة. .
- زينب بنت جحش. .
- رملة بنت أبى سفيان (أم حبيبة). .
- صفية بنت حيى بن أخطب. .
- مارية القبطية. .
- ميمونة بنت الحارث. .

obeikandl.com

وكان لكل واحدة منهن ظروف دفعت النبى إلى الاقتران بها.. أما ظروف اجتماعية أو سياسية، وإذا كان المقام الأول فيما يتعلق بهذا الزواج أنه أمر من الله سبحانه وتعالى للنبى ﷺ..

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وقد فسر الإمام ابن كثير قوله تعالى فى سورة الأحزاب:

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

يقول الله تعالى ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أى فيما أحل له وأمره من تزويج زينب رضى الله عنها التى طلقها دعيه زيد بن حارثة رضى الله عنه وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾.. أى هذا حكم الله تعالى فى الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشئ وعليهم فى ذلك حرج، وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصانا فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذى كان قد تبناه..

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.. أى وكان أمره الذى يقدره كائنا لا محالة وواقعا لا محيد عنه ولا معدل فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن..

والحديث عن النبى ومعاملته لزوجاته يمكن أن يفرد له مجلدات.. ومن هنا فسوف نلم إلمامة سريعة عن بعض الجوانب لنرى كيف كان النبى بسلوكه مع زوجاته نموذجا لما ينبغى أن يكون عليه المؤمن فى أسرته.. لأنه قدوة للمسلمين.. وأيضا نعرف كيف كانت أمهات المسلمين مدرسة علمية، عن

طريقهن تعلم المسلمون الكثير من سنة النبى ﷺ . .بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى. . وخاصة فى الأمور التى تتعلق بالمرأة. .

وقد قال عن عائشة عروة بن الزبير:

- لقد صحبت عائشة فما رأيت أحدا قط كان أعلم بآية أنزلت ولا بفريضة ولا بسنة ولا بشهر ولا بيوم. . من أيام الحرب ولا بنسب ولا بقضاء ولا بطب منها. .

وكانت حفصة بنت عمر بن الخطاب تجيد القراءة والكتابة، وهذا ساعدها على تدوين ما تسمعه من القرآن الكريم. . وعاشت نساء النبى معه عيشة هانئة سعيدة، لا يعكر صفوها شئ، سوى ما يوجد بين الضرائر من غيرة. . فالغيرة طبيعة بشرية. .

ولعل أشق محنة تعرض لها النبى، هى ما يسمى فى التاريخ بحادثة الأفك. . فقد شقت هذه الحادثة على النبى، وعلى عائشة رضى الله عنها. . فقد حدث أن صحب النبى فى غزوة بنى المصطلق زوجته عائشة وبعد أن انتهت المعركة، ذهبت هى لقضاء حاجتها بعيدا فى الصحراء، وكان عقدها قد انفرط، فأخذت تجمعه. . فى الوقت الذى كان الجيش الإسلامى يأخذ طريقه عائدا إلى المدينة. . وعندما عادت عائشة لم تجد الجيش. . وأعيتها الحيرة والقلق والتعب. . فأسلمت نفسها للنوم. .

وحدث أن جاء أحد المسلمين وهو (صفوان بن المعطل السلمى). . فوجد عائشة وعرفها، فأركبها راحلته وقادها للمدينة، حيث وصلها إلى الظهيرة. . ولم يكن فى الأمر شىء. . فالقصة عادية. . زوجة تخلفت فى الرحل، ثم عادت مع من قيضه الله ليعيدها إلى بيتها،ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد تقول عليها زعيم المنافقين فى المدينة عبد الله بن أبى بن سلول. وقال فيها زورا - قولا عظيما - فاتهمها فى شرفها مع الذى أنقذها من تيه

الصحراء.. وسرعان ما انتشرت الإشاعة الظالمة بين الناس.. لم يصدقها المؤمنون الصادقو الإيمان، ولكن المنافقين أخذوا يتهامسون بها.. حتى وصلت إلى مسامع الرسول، فآذته، أذى شديدا.. وأراد أن يضع للفرية نهاية فقال للناس:

- «يا أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيرا.. ويقولون ذلك لرجل ما علمت منه إلا خيرا وما أدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى»!!

وسمعت عائشة ما دار حولها، فحزنت حزنا شديدا.. فهى تعلم يقينا أنها بريئة تماما مما نسب إليها، وخرجت غاضبة إلى بيت أبيها الصديق.. وذهب إليها الرسول فى بيت الصديق وقال لها:

- «إذا كنت قد قارفت سوءا مما يقوله الناس فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة من عباده»..

وردت عائشة باكية:

- «والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا.. فلئن قلت لكم أنى بريئة لا تصدقونى ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى.. فوالله لا أجد لى ولكم إلا قول أبى يوسف عليه السلام: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»..

وزاد من أحزان عائشة أن النبى سأل بعض أصحابه فى هذه المسألة فبرءوا ساحة عائشة، غير أن علىّ بن أبى طالب قال له:

- «يارسول الله النساء كثيرات، وإنك لقادر على أن تستخلف وسل الجارية فإنها ستصدقك»..

وكانت الجارية هى بريرة التى أنكرت كل ما يمس شرف سيدتها بسوء..

وهذا الموقف من علىّ ترك فى نفسية عائشة شيئا ظل يلازمها طوال

حياتها مما يعرفه الدارس للتاريخ الإسلامى، عندما قامت عائشة بثورة على الإمام عندما تولى الخلافة.. وكانت نتيجة هذه الثورة.. تلك المعركة الدامية الرهيبة فى تاريخ الإسلام، والتى تعرف بمعركة الجمل حيث استشهد فيها قرابة الخمسة عشر ألفا من المسلمين!

وقد تبخرت هذه الإشاعة، عندما برأها الله سبحانه وتعالى بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١١ - ١٩].

وقد أقيم حد القذف بعد براءة السيدة عائشة على الذين روجوا لهذه الإشاعة الآثمة.. تنفيذا لقوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٤].

وهكذا عادت لعائشة كرامتها.. وسكنت العاصفة..

وقد قبض الرسول إلى الرفيق الأعلى فى حجرة عائشة بعد أن استأذن نساءه أثناء مرضه أن يقيم عند عائشة..

وعاشت نساء النبى معه.. فسوى بينهن فى الحقوق والواجبات، ولم يفضل إحداهن على الأخرى.. أما الميل القلبى فلم يكن له حيلة فيه.. وهذا لا ينفى أن يحدث دائما ما يحدث بين الضرائر.. ومن الطريف مثلا أن انشقت نساء النبى إلى حزبين.. حزب عائشة وحفصة وسودة.. وحزب ضم زوجات النبى الأخريات.. عندما تزوج النبى ابنة عمته زينب بنت جحش، وكانت جميلة، واتفق حزب عائشة أن يتهموا النبى ﷺ بأن رائحة فمه كريهة عقب ما أكله عند زينب، وكان ﷺ يكره الروائح الكريهة.. وكان ﷺ قد شرب بعضا من عسل النحل حتى أنه امتنع عن شرب العسل!!

وفى مرة تالية، اتفق نساء النبى بعد أن رأوا أن الأموال تدفقت على المسلمين بعد هزائم اليهود، فاتفقن على أن ينفق عليهن الرسول أكثر.. وكن الرسول رفض طلبهن، واعتزلهن جميعا شهرا، ونزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

و.. اختارت نساء النبى أن يعشن مع النبى.. وفضلن معه عيشة الكفاف على عيشة الرغد التى سولت لهن أنفسهن ذات يوم أن يحرصن عليها.. فالنبى ليس ملكا من الملوك، ولا امبراطوراً من الأباطرة، لا يعيش فى قصر من القصور، ولا تستهويه حياة القصور.. ولا لين العيش.. إنما هو بشر رسول.. يعيش بين الناس كواحد منهم.. ويمشى فى الأسواق.. ويتزوج كما يتزوجون، لكنه أكثر الجميع زهدا.. وأكثرهم عبادة لله وأكثرهم تقوى..

وسمعت نساءه ما أنزل على رسوله من القرآن فآثرن الحياة فى بيت النبوة، وما عاد يستهويهن ما كانت تصبو إليه نفوسهن من رغد العيش.. فلهن وضع يختلف عن الأخريات.. إنهن قدوة لكل المؤمنات..

وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت أن رسول الله ﷺ لما نزل إلى نسائه أمر أن يخيرهن فدخل على فقال:

- سأذكر لك أمرا لا تعجلى حتى تستشيرى أباك..

فقالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: إنى أمرت أخيركن.. وتلا عليها آية التخيير إلى آخر الآيتين. قالت فقلت: وما الذى تقول لا تعجلى حتى تستشيرى أباك؟ فإنى أختار الله ورسوله، فسر رسول الله ﷺ بذلك، وعرض ذلك على بقية نسائه.. فتتابعن كلهن، فاخترن الله ورسوله ﷺ..

ويورد الإمام ابن كثير حديثا مرفوعا لعلى رضى الله عنه قال:

- إن رسول الله ﷺ خيّر نساءه من الدنيا والآخرة ولم يخيرهن الطلاق وهذا منقطع..

وقد روى عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك وهو حالات الظاهر من الآية فإنه قال:

﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾.

أى أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن، وقد اختلف العلماء فى جواز تزوج غيره لهن لو طلقهن على قولين أصحهما نعم لو وقع ليحصل المقصود من السراح... والله أعلم..

وقال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة خمس من قريش عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضى الله عنهن، وكان تحته ﷺ صفية بن حيى النضيرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضى الله عنهن وأرضاهن أجمعين..

ثم كان هذا الدستور الخالد للإسلام بالنسبة لزوجات النبى، وهن قدوة لباقى المسلمات..

﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠].

وفى سورة النور يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

هذه هى الصورة النقية الطاهرة التى رسمها الإسلام للمرأة.. وبجانب ذلك منحها حقوقا لم تكن تحلم بها.. ومع ذلك لم يتورع الحاقدون أن يحاولوا النيل من نبى الإسلام.. والعقاد يرد عليهم بقوله:

- قال لنا بعض المستشرقين أن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية، قلنا لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط، فلا ينبغى أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء.. فالنبى ﷺ أمكنه أن يسوس تسع زوجات ولم يؤثر عنهن خصام أو نزاع إلا مرات تعد على أصابع اليد، فمن أتيح له أن يجمع بين عدد من الزوجات فعليه أن يقتدى فى معاملة زوجاته بالعدل، ومعالجة الشئون المنزلية بالأناة وسعة الصدر وعلى النساء أن يتخذن من زوجات النبى الكثيرات مثالا صالحا

يقتضينه من العفة والزهد وتدبير المنزل والرضا بما قدم لهن.. من متاع هذه الدنيا، وبذلك تسعد الأسرة بنجاحها، وتقوم بواجبها نحو الله والمجتمع الإنسانى..

ولو أن المسلمين وغيرهم تأملوا فى حياة النبى من نسائه واقتدوا به فى معاملة الأزواج والأبناء والأقارب كما أمرهم الله لعاشوا عيشة راضية مرضية..

فالإسلام وهو يحترم الطبيعة والفطرة، لم يفعل ما فعله رجال الكنيسة، ولم يقل الإسلام عن المرأة ما قالوا عنها بأنها ليست كائنا بشريا ولكنها الشيطان نفسه، وأن صوتها هو فحيح الأفعى!!

وقد كفل الإسلام للمرأة حق التعلم مثلها مثل الرجل تماما.. فقال عليه الصلاة والسلام:

- طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة..

* * *

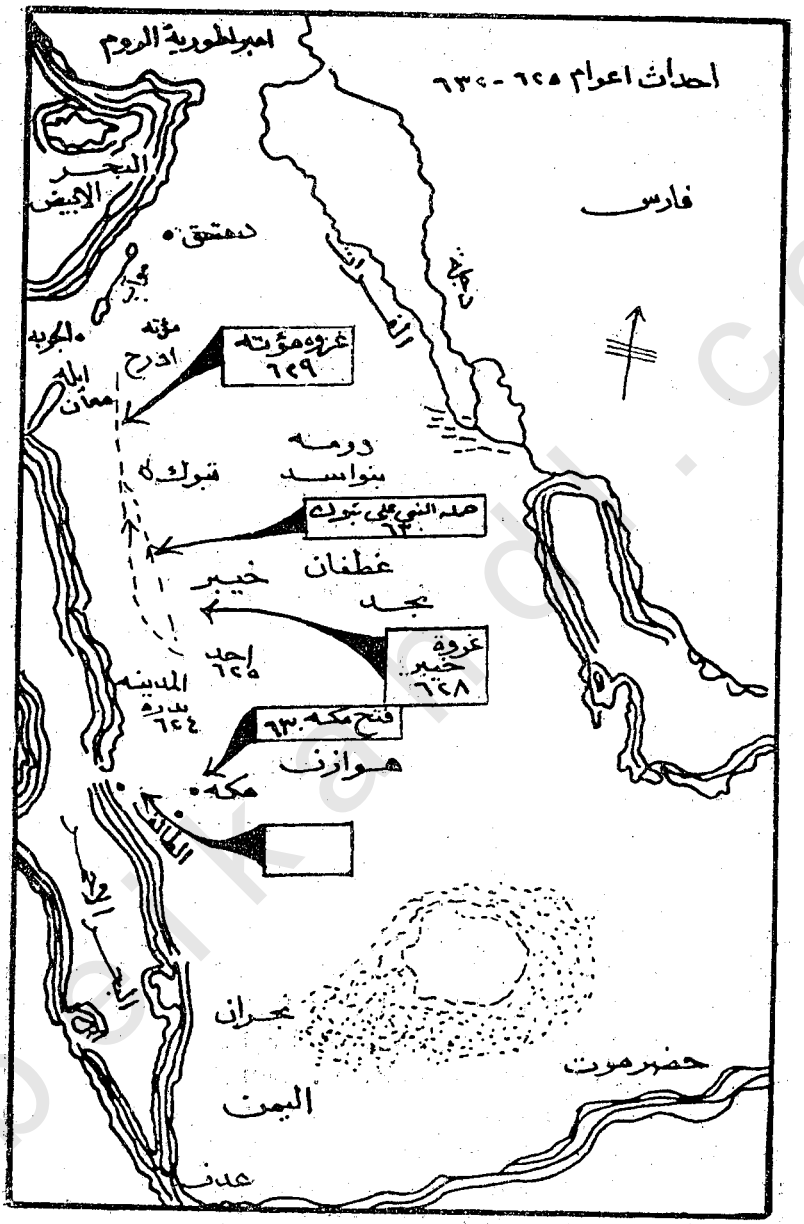
احداث اعوام ٦٢٥ - ٦٣٠
امبراطورية الروم
البحر الابيض
فارس
دمشق
مؤته
٦٢٩
غزوة مؤته
٦٢٩
الجوبه
اذرح
معان
ايله
دومه
بنو اسد
تبوك
٦٣٠
وفد النبي في تبوك
غطفان
خيبر
نجد
احد
٦٢٥
غزوة خيبر
٦٢٨
المدينه
بدر
٦٢٤
فتح مكه ٦٣٠
هوازن
مكه
البحر الاحمر
نجران
حضرموت
اليمن
عدن